www.christianlib.com

سفر صفنيا

مقدمة

سفر صفنيا هو الثامن في مجموعة «الاثني عشر» المسماة «الأنبياء الصغار». السفر كلاسيكي جدًّا، يتبع نمط أسفار الأنبياء التقليدي. يبدأ بإنذار نبوي، يتوقع معه حلول المصائب في وسط شعب يهوذا، ثم يدعوهم إلى التوبة. ينطق بنبوات تتعلق بحلول يوم الرب، وبخراب الشعوب المعادية لإسرَإيل. ويُختم السفر برسالة رجاء بترميم الحياة الوطنية والاجتماعية والدينية. وليس في السفر أي موضوع في إشكالية نصية أو تاريخية أو لاهوتية.

الكاتب

لا نعرف شيئًا عن النبي صفنيا سوى ما جاء في السفر. لاسمه عدة معانٍ: «**صَفَنْيَاهُو**» أي «سكتَ متأملًا»، يهوه «سكت منتظرًا»؛ «اليهوه تأمل بالأمر». تقول فاتحة السفر: «كَلِمَةُ ٱلرَّبِّ ٱلَّتِي صَارَتْ إِلَى صَفَنْيَا بْنِ كُوشِي بْنِ جَدَلْيَا بْنِ أَمَرْيَا بْنِ حَزَقِيَّا، فِي أَيَّامِ يُوشِيَّا بْنِ آمُونَ مَلِكِ يَهُوذَا» (١: ١). يريد الكاتب، دون شك، أن يُظهر الصلة النسبية بين صفنيا وحزقيا، فهذا الأخير جدٌّ متأخر لصفنيا. ولماذا توقف عند حزقيا؟ نظرًا لتقوى هذا الملك وسيرته الصالحة. تنبأ في عهد يوشيا ملك يهوذا (٦٤١–٦١٠ ق. م.)، كما يُفيد النص؛ وعليه، فيكون قد عاصر النبي إرميا في بداياته. وقد تركز نشاط النبي في أورشليم (١: ٤–١٠؛ ٣: ١، ١٤).

تاريخ الكتابة

يوضح السفر نفسه بأن النبي صفنيا تنبأ في عهد الملك يوشيا (٦٤٠–٦٠٩ ق. م.) (صف ١: ١). غير أن الفقرة (٣: ١٤–٢٠) التي تشبه (زك ٢: ١٠–١٣)، تبدو وكأنها تعود إلى قبيل نهاية السبي. هذا ما جعل بعض العلماء يرون أن السفر، بصورته الأخيرة، وُضع في فترة السبي وبعده. هذا لا يعني أنه من غير الممكن أن يكون قسمٌ من السفر قد كُتب قبل هذا التاريخ.

البنية الأدبية

يعتبر السفر وحدة أدبية واحدة بالرغم من اعتراض بعض العلماء على هذا الموضوع. هو نص نبوي كلاسيكي مرتب في ثلاثة أقسام، وهذا مألوف في كثير من أسفار الأنبياء:

١: ١–٢٣ إنذار نبوي ليهوذا بتوقع ضربات آتية عليها ودعوتها إلى التوبة

٢: ٤–٣: ٧ إعلانات بدينونة الأمم وأورشليم

٣: ٨–٢٠ تشجيع البقية التقية ونبوة بتوبة إسرَإيل والعودة من السبي

الخلفية التاريخية والدينية

الحقبة التاريخية التي جاءت نبوة صفنيا في سياقها هو زمن نهايات الإمبراطورية الأشورية. وكان الأشوريون قد قضوا على الدول الآرامية الواقعة بين الفرات والبحر المتوسط، ضمنها دمشق ٧٣٢ ق. م. والسامرة عام ٧٢٢ ق. م. وجلاء سكانها، والاستيلاء على صور سنة ٧٠١ ق. م. وصيدا التي دمرت برمتها سنة ٦٧١ ق. م. ونهب طيبة في مصر ٦٦٣ ق. م. ونهب بابل في السنة ٦٨٩ ق. م. ونتج عن هذه الفتوحات كل أنواع الدمار والخراب والمجازر الوحشية.

بعد ذلك ببضع عشرات من السنين، انقلبت الأحوال في الشرق الأدنى رأسًا على عقب، فسحق الميديون نينوى في ٦١٢ ق. م. ثم تدفق الكلدانيون الجدد (بالنظر إلى بابل القديمة) من بابل نحو الغرب، فحاصروا أورشليم ثلاث مرات وانتهوا إلى احتلالها، وإعمال السيف بسكانها والنيران بمقتنياتها ٥٨٧ ق. م. في الحقبة الأشورية التي ملك فيها منسى في يهوذا مُلكًا طويلًا (٦٨٧–٦٤٢ ق. م.)، كانت يهوذا محصورة في الممر الفلسطيّ بين قوتين عظيمتين: مصر وما بين النهرين. لم تستطع أن تحافظ على الحياد، فاشتركت في الدسائس والتكتلات. في هذه الأثناء، قُتل الملك آمون (٦٤٢–٦٤٠ ق. م). (٢ مل ٢١: ٢٣) وملك يوشيا (٦٤٠–٦٠٩ ق.م.) مكانه. ومن المرجح أن يكون آمون اغتيل بيد عناصر من جيشه يرفضون النير الأشوري ويناصرون مصر.

أما بالنسبة للوضع الروحي، ففي عهد الملكَين آمون ومنسى، أُدخلت الممارسات الوثنية إلى المدينة المقدسة (٢ مل ٢١)، مما أدى إلى فساد أخلاقي. كان الملك يوشيا أحد الذين حاولوا أن يضعوا حدًّا للفساد في الهيكل، فمنع كل الممارسات الوثنية وأغلق المعابد الوثنية على المرتفعات (را. ٢ مل ٢٢–٢٣). وكان النبي صفنيا، دون شك، أهم المشجعين على الإصلاح الذي نستشف من سفره الوضع السيء الذي واجهه يوشيا الملك. في هذا الإطار التاريخي، مارس صفنيا نشاطَيه الديني والسياسي موجهًا انتقاداته للوزراء والرؤساء، في حاشية الملك، والموالين للغرباء بارتداء أزيائهم، وممارسة عاداتهم الاجتماعية والدينية.

رسالة السفر وقيمته اللاهوتية

يحمل السفر رسائل إلى عدة أطراف في يهوذا:

www.christianlib.com

١. رسالة إلى شعب يهوذا: يضع الله أورشليم تحت القصاص والدينونة لأن المدينة عاصية وغير أمينة، ولأن رؤساءها وقضاتها وأنبياءها وكهنتها غرقوا في الفساد والوثنية والبعد عن الرب، وأغلقوا مسامعهم تجاه صوت الله. وتشمل الدينونة جميع فئات الشعب. وهذا الحديث عن دينونة أورشليم، يتحوّل إلى كلام عن «يوم الرب» (١: ١٤-١٨).

٢. رسالة إلى الأمم أعداء يهوذا: الأمم الكنعانية ودول شرق الأردن وكوش وأشور، ينذرهم الله أيضًا بالدينونة لأنهم اقترفوا آثامًا، بسبب «تكبرهم ولأنهم عيروا وتعظموا على شعب رب الجنود» (٢: ١٠).

٣. رسالة إلى «بائسي الأرض»، الوضعاء والمساكين، البقية التقية لكي يعملوا مشيئة الله، ففي ذلك أمل لهم بالنجاة من غضب الله. هؤلاء هم النواة التي ستكون شعب الله الجديد في المنفى. ولهم أيضًا رسالة رجاء بالعودة من المنفى وبعودة أرضهم إلى سابق عهدها من الازدهار والانتعاش الروحيين. يتكلم النبي عن جبل الرب المقدس، حيث سيجمع الله شعبًا جديدًا أمينًا له، ويكرمه أمام الأمم في «أورشليم مبتهجة حرة مقدسة»، حيث يقيم الله في وسط شعبه ويكون هو ملكهم الحقيقي. وبعد الصفحات المضطربة التي يملؤها صفنيا برؤاه المكدِّرة، يختم السفر بلوحة رقص في أورشليم وهي تقيم الأعياد والحفلات.

ولعل أشهر المواضيع التي كتب عنها صفنيا واشتهر بها هو «يوم الرب». وليوم الرب في صفنيا وجهان: إسرَإيل والأمم. ويصورهما صفنيا كمجموعتين متعاديتين. والمميز في صفنيا، أن دينونة يهوذا هي «يوم الرب». أما الأنبياء الآخرون الذين بحثوا في يوم الرب، فقد انتقلوا من عقاب الأمم إلى «يوم الرب». إنّ «يوم الرب» هو الزمن الذي ينتقم فيه الله لشعبه من الأمم فيخلصه، كما فعل فيما مضى عند خروجه من مصر. من أجل ذلك، يجدد الرب عجائبه وآياته ضربات ينزلها بالأمم. لكن تَصَوُّر صفنيا يتجاوز التاريخ البشري إلى الدائرة الكونية، فينبئ بكارثة كونية عناصرها الغيم والسحاب والضباب والنيران والريح والمياه. إنّ جميع عناصر الطبيعة جنود بيد الله لتحقيق «يوم الرب». وهذه هي عناصر الأسلوب الرؤيوي. وبحسب صفنيا، ينتهي التاريخ في وليمة دم يرأسها الله نفسه، ويدعوها «ذبيحة الرب» (١: ٧-٨). هي مناسبة لمعاقبة بني إسرَإيل الذين تزينوا بلباس الوثنيين وعاداتهم ولدمار الأمم الوثنية المعادية لله. «إلا أن يوم الرب لا يظهر في جوهره عند صفنيا بمظهر نهاية العالم والتاريخ، بل بمظهر تحول شعب الله وإعادة صياغته، وبمظهر نهاية الخطيئة» (الترجمة اليسوعية، ١٩٩٢).

التفسير

١: ١ المقدمة التحريرية

في أغلب الظن، هذه المقدمة من نتاج المحرر الأخير للكتاب. والرؤى التي كان يراها الأنبياء هي «كلمة» الرب. في الترجوم، كلمة الرب مشخصنة، هي الوسيط بين الله والنبي لأن الله «إله محتجب» (إش ٤٥: ١٥) ولا يتصل مباشرة بالبشر. في أواخر الفترة الفارسية وبداية الهيلنستية سيبرز الملاك كوسيط بين الله والنبي، هذا ما نراه في سفر دانيال. والأسماء المذكورة في سلسلة النسب، كوشي وجدليا وأمريا، هي أسماء مستعملة في العهد القديم، لكن هؤلاء الذين يشكلون أجداد صفنيا، لا نعرف عنهم شيئًا. يوشيا ملك يهوذا (٦٤١-٦٠٩ ق. م.) الذي خدم صفنيا في زمنه هو ملك عظيم في تاريخ يهوذا. قام بإصلاح ديني كبير على أثر اكتشاف كتاب الشريعة (٢ مل ٢٢-٢٣)، وعلى الأغلب ساعده النبي صفنيا في هذا الإصلاح. لكن هذا ليس مذكورًا في سفر الملوك الثاني حيث سيرة يوشيا وإصلاحه، ولأسباب نجهلها.

١: ٢- ٢: ٣ إنذار نبوي إلى يهوذا بتوقع ضربات آتية عليها ودعوتها إلى التوبة

يُفصح الله بواسطة النبي، عن الضربات التي ستصيب يهوذا في حال لم يتب شعبها عن ممارسة العبادة الوثنية، ثم يوجه لهم دعوة للتوبة لكي يخلصوا من الضربات القادمة.

١: ٢-٣: يهدد الرب بإزالة كل حي عن وجه الأرض بين البشر والبهائم البرية والجوية والبحرية، وبإبادة الأوثان المصنوعة على صُوَر هذه البهائم (هكذا تعني الكلمة العبرية المترجمة «المعاثر») مع الأشرار الذين يعبدونها. تُذكّر هذه الصورة، وخاصة استعمال عبارة «وجه الأرض» بإنذار الله قبل الطوفان (تك ٦: ٧؛ ٧: ٤، ٢١-٢٣؛ را. هو ٤: ٣؛ حز ٣٨: ١٩-٢٠). والمقصود بـ«الأرض» هنا الأرض بشكل عام، ثم في ع. ٤ ستُحدد بأرض يهوذا.

١: ٤-٦: يُحصَر التحذير بيهوذا، ويعطي النبي بعض التفاصيل عن أنواع العبادات الوثنية التي يمارسها الشعب، ويقول الله بأنه سيقطعها. سيقطع الله كل آثار (بقية) للبعل، مع أسماء «الكماريم»، وغالبًا هم كهنة البعل أو مساعدوهم، والكهنة، فلا يعود يتذكرهم أحد (ع. ٤). وانقطاع ذكر أحد على الأرض نوع من اللعنة. عبادة البعل كانت مزدهرة في كنعان. وسيقطع الرب أيضًا عابدي الكواكب حيث كانوا يعبدونها من على سطوح المنازل. وتمارس هذه العبادة كثيرًا في بلاد الرافدين، وربما أتت من هناك إلى كنعان. كان الملك منسى قد شجع هذه العبادات بقوة، ولم يقضِ عليها الملك يوشيا تمامًا على الرغم من إصلاحه الديني (٢ مل ٢١: ٣، ٥؛ ٢٣: ٥-٦؛ إر ٧: ١٧-١٨؛ ٨: ٢؛ ٤٤: ٧-١٩، ٢٥). وسيقطع الرب أيضًا أولئك

www.christianlib.com

الذين كانوا يعبدون يهوه (الله) ويحلفون باسمه وباسم ملكهم، أو باسم الإله ملكوم. الكلمة العبرية «**م ل ك و م**» تُفهم بالمعنيين (ع. ٥). فإذا كان المعنى المتبع هو «ملكهم» تكون خطيئة الشعب أنهم ساووا يهوه (الله) بملكهم. وإذا كان المعنى المتبع الإله «**م ل ك و م**»، قد يكون المقصود به الإله «مولك» مع إضافة الضمير «هم» (مولكهم). وعبادة مولك كانت شائعة جدًّا في إسرَإيل في وقت من الأوقات (١ مل ١١: ٣٣). وأخيرًا سيقطع الرب أولئك الذين ارتدُّوا عنه وتبعوا آلهة أخرى حالما أدركهم الخطر (ع. ٦).

١: ٧-١٨: يطلب النبي من سكان يهوذا أن يصمتوا رهبة من الله وخوفًا مما سيعمل (حب ٢: ٢). «يوم الرب» قريب. يأتي هذا الموضوع بكثرة في أسفار الأنبياء. هنا يُصور النبي «يوم الرب» على أنه الوقت الذي يتدخل فيه الله بوضوح لينفذ التهديد الذي تفوه به (يؤ ١: ١٥؛ عو ١٥). ويقول النبي بتهكم بأن الله قد أعد ذبيحة في هذا اليوم وقد أعد (قدّس) مدعويه لهذه المهمة. يشبّه النبي العقاب الإلهي ليهوذا بذبيحة كبيرة يقدمها الله بمساعدة مدعويه (ع. ٧)؛ ووجه الشبه هو القتل وسفك الدم؛ فأعمال أيديهم ستقع على رؤوسهم (عو ١٥). وسيكون الكلدانيون المهاجمون هم الكهنة الذين يقدمون الذبيحة (إش ١٣: ٣؛ إر ٤٦: ١٠؛ حز ٣٩: ١٧). أول المعاقبين في «الذبيحة» هم الرؤساء (الملك والحاشية) وبنو الملك و«جميع اللابسين لباسًا غريبًا» (ع. ٨). اللباس الغريب يُشير إلى تبني ثقافة غريبة. وبهذا يضم النبي إلى المعاقبين أولئك الذين لبسوا ثياب الوثنية الكنعانية أو الكلدانية أو المصرية. هؤلاء هم الذين يتحملون المسؤولية الكبرى عما سيحل بالشعب. ثم يتناول النبي في العقاب فئة «الذين يقفزون فوق العتبة» (ع. ٩) الذين مارسوا العادات الفلسطية الدينية (را. ١ صم ٥: ٥) عندما يدخلون معابد آلهتهم، أو لربما مارسوا هذه العادة في عبادتهم الله فـ«ملأوا بيت سيدهم ظلمًا وغشًا». ولكثرة القتل، تصدح الولاول والصراخ من كل نقطة في يهوذا: وَلاوِل من «باب السمك»-ربما هو باب سور أورشليم من حيث يخرجون صوب البحر، أو من حيث دخل الكلدانيون المدينة، وبدأوا بالقتل (نح ٣: ٣؛ ١٢: ٣٩؛ ٢ أخ ٣٣: ١٤)-وولولة من الحي الثاني من المدينة، ربما الحي المحاذي لباب السمك (٢ مل ٢٢: ١٤)؛ و«كسر عظيم»، صوت تحطيم الأبنية على رؤوس ساكنيها في كل تلال مدينة أورشليم (ع. ١٠). إنها صورة مخيفة لما حلّ بأورشليم يوم دخلها الكلدانيون سنة ٥٨٧ ق. م. في ع. ١١، يوجه النبي نداء لأهل مكتيش (تعني الجرن وفي بعض الترجمات: سوق) لكي يولولوا هم أيضًا لأن سكان كنعان بادوا وأصحاب الفضة، ممن يشترون عادة، ليسوا بموجودين. «في ذلك اليوم» (يوم الرب)، يبحث الرب بالمشاعل عن الأشرار في أورشليم (ع. ١٢): إنها صورة للجنود الذين يبحثون عن الأعداء في المخابئ المظلمة بعد الدخول إلى المدينة. «الرجال الجامدين على دردیهم» صورة مستوحاة من صناعة الخمر، فالخمر يجب أن يُصفى من نقيع العنب في الوقت المحدد لئلا يتخلل ويفسد طعمه (إش ٣٢: ٩؛ حز ٣٠: ٩؛ عا ٦: ١). هؤلاء الرجال جامدون في أوساخهم يشككون في حقيقة الرب وتحذيراته التي وجهها. هؤلاء المشككون بالرب وجدية إنذاراته تصير كل ثرواتهم خرابًا، فبيوتهم التي بنوها لا يسكنون فيها لأنها هُدمت، وكرومهم التي زرعوها لا يأكلون منها ولا يشربون من خمرها لأنها قُلعت، أو لأنهم هم أنفسهم راحوا بحد السيف (لا ٢٦: ٣٢-٣٣؛ تث ٢٨: ٣٠، ٣٩؛ عا ٥: ١١؛ مي ٦: ١٥).

١: ١٤-١٨: يوم الرب وأهواله. يوم الرب عظيم وقريب وسريع؛ صوته يدَّوي، حتى صار الجبار يصرخ من المرارة المتأتية من الخوف والرهبة (ع. ١٤). في ع. ١٥، يصف النبي يوم الرب كيوم شتاء سماؤه ملبدة ورعوده تقصف وبروقه تشتعل وسحبه تسبب الخراب والدمار؛ يوم ظلام دامس يجتاح الناسَ ضيقٌ وشدةٌ. في ع. ١٦ نجد صوت البوق، وهو هنا بوق الحرب، فالقادة يأمرون الجنود بالصعود إلى المدن والقرى فتعلو صيحات القتال في كل مكان، ولا تسلم الحصون والقلاع من الخراب. في ع. ١٧، يضرب الرب السكان بضيق شديد فيسيرون كالعميان ويعثرون فيسقطون (تث ٢٨: ٢٩)؛ كل ذلك يحدث لهم لأنهم خطئوا إلى الرب، فتسيل دماؤهم، وتتفتح أحشاؤهم وتتدفق محتويات أمعائهم، فيتفادى الناس الدوس عليها كما يتفادون السير على الجلّة (فضلات الحيوانات). في ذلك اليوم، لا فضتهم ولا ذهبهم ينفعانهم، ولن يقف شيء في وجه غضب الرب عليهم، لأن نار غيرته المتقدة بسبب خيانة شعبه تأكل الأرض فيفنى جميع سكانها (ع. ١٨).

٢: ١-٣: يأمر الرب شعب يهوذا بالتجمع كما يُجمَع الحطب للحريق (١ مل ١٧: ١٠و ١٢)، ويدعوهم «الأمة التي لا تخجل» أي الشعب اللئيم (ع. ١). في ع. ٢-٣، ينادي النبي بائسي الأرض، الفقراء والمهمشين (أي ٢٤: ٤؛ مز ٧٦: ٩؛ إش ١١: ٤؛ عا ٨: ٤): «اطلبوا الرب... اطلبوا البر... اطلبوا التواضع» قبل أن يصدر الحكم الإلهي بإنزال الغضب في يوم التدخل الإلهي، لأن يوم الرب يأتي كالعاصفة التي تأخذ القش ولا يمكن جمعه فيما بعد. لعل التوبة تحميكم، والغضب لا يطالكم. تتمثل التوبة هنا بطلب الرب، والعيش بطرقه، وهذا يلزمه التواضع.

٢: ٤-٣: ٧ إعلانات بدينونة الأمم وأورشليم

يحتوي هذا القسم إعلانات بدينونة فلسطيا وموآب وعمون وكوش وآشور، وإرسال رسالة توبيخ إلى أورشليم لكي تقبل التأديب الإلهي. ويتخلل إعلانات دينونة الأمم، إعلانات بتوبة

www.christianlib.com

يهوذا ورجوعهم إلى الرب الذي يُصلح أمورهم ويردّ سبيهم.

٢: ٤-٧ دينونة فلسطيا تقع فلسطيا على الساحل الجنوبي لكنعان، أي جنوب يهوذا، وتُعرف بمدنها الخمس ذُكر منها أربع فقط في ع. ٤: غزة وأشقلون وأشدود وعقرون؛ ولم تُذكر جتّ كما في عا ١: ٦-٨ وزك ٩: ٥-٧، ربما لأن الأشوريين كانوا قد خرّبوها ٧١١ ق. م. كانت العلاقات الإسرَإيلية-الفلسطية دائمة التوتر في تاريخ إسرَإيل، كون الطرفين كانا يحاولان احتلال المناطق المعتدلة. وبموجب هذه النبوة، ستقفر غزة من سكانها (يوجد لعب بالألفاظ في النص العبري: عَزّة عَزوبة = عزة عزباء). وستُصبح أشقلون خربة (مصيرها كمصير غزة). وفي عزّ حر النهار، سيطرد المحتلون سكان أشدود على حين غرة (إر ٦: ٤؛ ١٥: ٨)، أو عند الظهر يكون المحتلون قد أجلوا سكانها. وعقرون تُزال عن بكرة أبيها (يوجد لعب بالألفاظ في النص العبري: عقرون تعَقّر = عقرون تصبح عاقرًا). مصير المدن الفلسطية الأربع واحد تقريبًا لكن بصور مختلفة. ترتيب المدن جغرافيًا يأتي من الجنوب إلى الشمال. ولربما يُفيدنا هذا الترتيب في معرفة العدو: السكيثيون (الساسانيون = الإيرانيون القدماء) الخارجون من مصر. في ع. ٥، ينطق النبي بالدينونة على فلسطيا كلها؛ دُعيت هنا فلسطيا بأربعة أسماء: «ساحل البحر» و«أمة الكريتيين» و«كنعان» و«أرض الفلسطيين». «أمة الكريتيين»: يُعتقد أن أصل الفلسطيين من كريت، أو على الأقل جزء منهم (حز ٢٥: ١٦؛ ١صم ٣٠: ١٤؛ عا ٩: ٧). وحرس داود الشخصي كان من الكريتيين والفلسطيين (٢ صم ٨: ١٨). كلمة الرب، أو قضاء الرب على فلسطيا قضى بأن تصبح مقفرة من السكان، ومراحًا للرعاة مثل الخرب القديمة (ع. ٦). الكلمة العبرية «كروث» المترجمة «آبار» ربما تعني مراعي أو حظائر. في ع. ٧، يختلف الخطاب، فينتقل من خطاب دينونة إلى خطاب وعد بالبركة. الساحل الجنوبي المقفر، حيث كانت فلسطيا، يصبح مرعىً لمواشي شعب يهوذا («بقية بيت يهوذا») الذين يكون الرب قد رد سبيهم، وتصبح بيوت أشقلون المخربة حظائر للمواشي كما في ع. ٦. لقد عاد شعب يهوذا من السبي بدءًا من العام ٥٣٨ ق. م. كان الساحل الجنوبي، منطقة المدن الفلسطية خربة، وصارت مراحيَ ومراحًا لمواشي شعب يهوذا، بينما لا نجد ذكرًا للفلسطيين في مرحلة ما بعد العودة من السبي.

٢: ٨-١١ دينونة موآب وعمون تقع موآب وعمون في منطقة شرق الأردن، تحد عمون باشان من الشمال، وتحد موآب آدوم من الجنوب. وهذه الدويلات الأربع تغطي كل منطقة شرق الأردن من الشمال إلى الجنوب. الصراع بين إسرَإيل ودول شرق الأردن قديم العهد، تفتقر هذه الدول إلى المياه ووسائل العيش، وكثيرًا ما كانت تسطو على المزروعات في غور الأردن، أو تعطي ولاءها للمحتلين فتساعدهم في احتلال إسرَإيل. وازدادت التعديات بشكل ملحوظ عندما سقطت مملكة الشمال (إسرَإيل) بيد الآشوريين، وأصبحت مملكة الجنوب (يهوذا) تحت تهديداتهم وتهديدات الكلدانيين بعدهم. في ع. ٨، يقول الله/النبي بأنه سمع «تعيير موآب وتجاديف بني عمون» التي وجهوها إلى «شعبه» (على الأغلب المقصود شعب الرب، فتكون إذًا موجهة للرب نفسه). هي الشماتة وكلمات السوء التي تفوه بها مسؤولو موآب وعمون عندما أصابت إسرَإيل (بما فيها يهوذا) المصائب من مصادر مختلفة ولعل آخرها من المصدر الآشوري ثم الكلداني. يبدو أن التعيير والتجديف تجسدا بتعديات مادية على يهوذا («تعظموا على تخمهم»). في ع. ٩، يأتي كلام الله ناطقًا بالحكم على المعتدين، موآب وعمون، مصحوبًا بقسم («حي أنا..»). «رب الجنود» توحي بالحرب. «إله إسرَإيل» توحي بأن الدينونة هي للدفاع عن إسرَإيل ولتحصيل حقوق شعب الله. الدينونة: «موآب تكون كسدوم وبنو عمون كعمورة..». هي إشارة إلى حريق سدوم وعمورة بالنار والكبريت (تك ١٩: ٢٣-٢٩)، وربما تذكير بأن شعبي موآب وعمون هما نتيجة علاقة سفاح بين لوط وابنتيه عندما خلصه الله من دمار سدوم وعمورة (تك ١٩: ٣٠-٣٨). «موآب تكون كسدوم وبنو عمون كعمورة ملك القريص وحفرة ملح..». كلما ذهبنا جنوبًا في منطقة شرق الأردن تصبح الأرض ناشفة والصخور جرداء والأملاح كثيرة في التربة حيث لا تقوى على الحياة إلا بعض النبتات الصحراوية. «إلى الأبد» ليست بالضرورة إلى وقت غير محدود أو لا تعود تُبنى. عندما يحل القضاء بموآب وعمون، يبدو أن «بقية يهوذا» تساعد في النهب، وتصبح أرضهم ملكًا ليهوذا. يبدو أن النبي يتكلم هنا عن تعديات الموآبيين والعمونيين على إسرَإيل حتى مجيء الملك داود، وهو الذي أخضع هاتين الدولتين (٢ صم ٨: ٢؛ ف. ١٠؛ ١٧: ٢٧-٢٩). لكن سوف تعودان وتظهران فيما بعد وتشتبكان مع عدد من ملوك إسرَإيل وملوك يهوذا حتى يأتي الآشوريون ويحتلون منطقة شرق الأردن كلها قبيل احتلال السامرة، أي خلال الفترة ٧٣٤-٧٢٢ ق. م. ولا ندري عن أية حقبة يتكلم النبي هنا. في ع. ١٠، يتكلم النبي عن تكبر موآب وعمون الذي دفعهما لتعيير يهوذا وتسبب لهما في هذه الدينونة الإلهية والمصير المزري (إش١٦: ٦؛ إر ٤٨: ٢٩). في ع. ١١، سوف تكون آلهة موآب وعمون ضعيفة أمام الرب إله يهوذا. في مفهوم الشعب آنذاك، عندما يتمكن جيش إسرَإيل بقيادة يهوه (ع. ٩: «رب الجنود إله إسرَإيل») من إخضاع شعب موآب وعمون، يكون يهوه نفسه قد أخضع آلهتها فلا تستحق العبادة، لذلك ستخضع الشعوب كلها ليهوه إلى يهوذا، الذي هو الله بلغتنا.

٢: ١٢-١٥ دينونة كوش وآشور بعد أن تكلم صفنيا عن دينونة شعوب غرب يهوذا (فلسطيا) وشرقها (موآب وعمون)، يتكلم الآن عن دينونة شعوب الجنوب (كوش) والشمال (أشور). في ع. ١٢، يتكلم النبي عن دينونة كوش. تقع كوش في منطقة مصر العليا،

www.christianlib.com

لذا فبعضهم يعتقد أن المقصود ليس مصر بل أثيوبيا. بحسب تك ٢: ١٣؛ نهر جيحون (المعروف لدى العلماء بأنه النيل) يحيط بأرض كوش. كوش في الكتاب المقدس هي إذًا الأرض المحاذية لنهر النيل (أثيوبيا والسودان ومصر). في لائحة الأمم (تك ١٠: ٦) كوش هو أخو مصرايم، فلا عجب أن تنطبق التسمية على مصر في سياق هذا السفر، خاصة وإنَّ عددًا من فراعنة مصر كانوا من الأثيوبيين. نعلم من حز ٣٠: ٢٤-٢٥، أن ملك الكلدانيين نبوخذنصر هو من حمل «سيف الرب» وشرع يقتل الكوشيين. هذا ما حدث فعلًا عندما تواجه المصريون بقيادة نخو والكلدانيون بقيادة نبوخذنصر في معركة كركميش (جرابلس اليوم) سنة ٦٠٥ ق. م. (إر ٤٦: ٢)، حين ناصر المصريون الآشوريين، الذين كانوا يشكلون القوة العظمى في المنطقة، وأرادوا إعاقة تقدم الكلدانيين. فانكسر المصريون في المعركة وطُردوا من سوريا نهائيًّا، وتابع الكلدانيون زحفهم ليسيطروا فيما بعد على كل مناطق الإمبراطورية الآشورية، وتكرس الكلدانيون كقوة عظمى في المنطقة. ع. ١٣-١٥ مخصصة للكلام عن دينونة الإمبراطورية الأشورية وسقوط نينوى عاصمتها. أصبحت نينوى خرابًا وأرضًا مقفرة ترودها القطعان والحيوانات البرية والطيور الكاسرة، وتصنع أعشاشها في تيجان أعمدة القصور المهدمة، وتُسمَع أصوات نعيقها صاعدة من الطُوَق والنوافذ. خشب الأرز المشغول الذي يزيّن القصور سقط على الأعتاب. في ع. ١٥، يعبّر النبي عن دهشته: كيف صارت هذه المدينة العظيمة خرابًا؟ ثم يصف إيماءة التعجب التي تصدر عن كل من يمر بنينوى الخربة (نا ١: ١٤؛ ٣: ١٩). كانت نينوى قد تابت على أثر مناداة النبي يونان فعفا الله عنها (يون ٣: ١٠)، لكن يبدو أنها عادت إلى شرورها فيما بعد. تتكلم هذه النبوة، دون شك، عن الأحداث التي جرت سنة ٦١٢ ق. م. حين جاء الكلدانيون واحتلوا المدينة وخرّبوها. وكان سنحاريب الأشوري قد نقل العاصمة من مدينة أشور إلى نينوى سنة ٧٠٤ ق. م. وبقيت نينوى، بعد ذلك، خالية من السكان ما عدا أقلية عاشت بين الخرب.

٣: ١-٧ توبيخ أورشليم وتأديبها يطلق النبي مرثاة على أورشليم من دون أن يسميها باسمها. في ع. ١، يطلق عليها أوصافًا بشعة. هي متمردة لأنها عاصية على الرب (ع. ٣). هي نجسة بسبب سلوك سكانها السيئ. وبسبب نجاستها، أصبحت مدينة ظالمة ومعنِّفة. في ع. ٢، أورشليم لم ترتدع عن فعل الشرور على الرغم من تحذير الأنبياء وتأديب الله. هي لم تقترب من إلهها وتتكل عليه. الكلام هنا عن المظالم التي كان المسؤولون يرتكبونها بحق الفقراء والضعفاء، ولم يوجد في أورشليم من يعترض. هي اقتربت من الأوثان وليس من إلهها لئلا تسمع التوبيخ والتهديد. في ع. ٣-٤، يطلق النبي أوصافًا بشعة جدًّا على قادة الدولة وقادة الدين. هم «أسود زائرة»، أي صاروا كالأسود التي أخذت وضع الانقضاض على فرائسها من الناس الضعفاء لالتهامهم. «ذئاب مساء»؛ عادة الذئب الجائع يبحث عن طعامه في المساء، ويتربص بفريسته في الظلام، فـ«ذئب المساء» ذئب شرس وخطير يفتك بفريسته بشراهة ويأكل كل صيده خلال الليل، فلا يُبقي منها شيئًا حتى الصباح. «أنبياء أورشليم» يتفاخرون كفقاعات المياه في درجة الغليان، يدَّعون تمثيل الله ونقلهم عنه قول حق وهم يكذبون ويخدعون سامعيهم بل يغدرون بالبسطاء (إر ٥: ٣١؛ ١٤: ١٤؛ ٢٣: ١١، ١٦ و٣٢؛ مرا ٢: ١٤؛ هو ٩: ٧). «كهنة أورشليم»، المفروض أن يكونوا هم المحافظين على نقاء العبادة، أخذوا يحللون المحرمات ويفتون بالشريعة ما يخدم مصالحهم (تث ٣١: ٩-١٣؛ ٢ أخ ١٧: ٨-٩؛ ١٩: ٨؛ عز ٧: ٦؛ حز ٢٢: ٢٦؛ إر ٢: ٨؛ ١٨: ١٨؛ مل ٢: ٧). بالمختصر، يريد النبي أن يقول بأن قادة أورشليم الدينيين والدنيويين هم كالوحوش يفتكون بضعفاء الشعب ويخدعون أصحاب الإرادات الحسنة، بل ويسلبونهم كل ما يجدونه معهم، بل ويقتلونهم في نهاية الأمر. ع. ٥، نفضل التالية على نص البستاني-فانديك: «الرب العادل في وسطها (أورشليم)، هو لا يصنع ظلمًا، صباح فصباح يُعطي حكمه إلى النور؛ و[على الرغم من ذلك]، فالظالم لا يخجل». وهذا يعني أنه على الرغم من حضور الرب العادل في وسط أورشليم، وعدم صنعه المفاسد، وفي كل صباح يُظهر أحكامه العادلة إلى النور، فالأشرار الذين يتآمرون في الظلام مستمرون في شرورهم ولا رادع. في ع. ٦-٧، يقول الله بأن ضربة الوثنيين وتخريب مدنهم وتهجير سكانها، وإقفار أسواقهم، كان يجب أن يكون هذا تهديدًا لمعاقبة أورشليم على شرورها فتخشى الرب وتعود إليه ولا يصيبها ما أصاب الوثنيين؛ لكن أهل أورشليم لم يرتدعوا بل بكّروا إلى صنع الشر كما في كل يوم؛ لذلك فهم في مصاف الأمم التي ينطق عليها الرب حكم العقاب على شرورها.

٣: ٨-٢٠ تشجيع البقية التقية ونبوة بتوبة إسرَإيل والعودة من السبي

يتابع النبي في هذا القسم ما بدأه في القسم السابق: النطق بحكم الدينونة على الأمم. لكن الخطاب بالنسبة لإسرَإيل، يتحوّل من خطاب دينونة إلى وعد بالتنقية والتطهير، ما يُظهر توبة إسرَإيل ورجوعها عن الشر وتحولها إلى الرب. وتكون أهم نتائج هذه التوبة عودتهم من السبي إلى أورشليم.

٣: ٨ حشر الشعوب ودينونتهم يوجّه الله كلامه، على الأرجح، إلى البقية التقية في يهوذا (إسرَإيل). الكلمة العبرية «عِد»، المترجمة «السلب»، تحتمل معنى آخر: «الشهادة» أو الشاهد، وهكذا وردت في السبعينية والسريانية، وترجمات عديدة اعتمدت هذا المعنى. وتفيد

www.christianlib.com

ترجمة البستاني–قاندايك بمعنى «شن الحرب» (السلب في الحرب). يقول الله للبقية التقية: «انتظروني حتى أحارب الأمم وأفرض سلطتي عليهم». يحضر الله هنا كـ«رب الجنود» المستعد لخوض معركة ضد الأمم. هو سيجمع كل الأمم الوثنية في أرض المعركة ويصب غضبه عليهم، وبنار غيرته يحرق أرضهم. وغيرته لأنهم يعبدون الأوثان، بينما هو وحده الإله الحقيقي.

٣: ٩–١٠ توبة الأمم هنا تتغير لهجة الكلام من لهجة دينونة إلى لهجة فرح. يقول الله بأنه سينقي شفاه الأمم (إش ٦: ٥–٧) فيعبدونه بنقاء وطهارة (ع. ٩). فالشفاه المطهرَة تُخرج كلامًا طاهرًا. «ليعبدوه بكتف واحدة» صورة تُذكّر بنير المحراث. الجماعة التي تضع نفسها تحت نير واحد هي جماعة موحدة (مت ١١: ٢٩–٣٠). العبادة «بكتف واحدة» هي وحدة في العبادة (أع ١: ١٤؛ ٢: ١؛ ٤: ٢٤، ٣٢). ع. ١٠ تحتمل عدة معانٍ، وأنا أقترح المعنى التالي: «عبر أنهار مصر (كوش؛ انظر ٢: ١٢) سيأتي حينئذٍ أولئك الذين بددتهم بضرباتي فيتضرعون إليَّ ويقدمون تقدمتي». عندما يتحوّل الشعوب إلى الله يأتون إلى هيكله ومدينة قدسه لكي يرفعوا الصلوات ويقدموا الأضاحي له. هي أيضًا صورة الملك المنتصر، فيأتي أعداؤه إليه يلتمسون عفوه ويقدمون له الهدايا. أفضل هذا المعنى لأنه يأتي كنتيجة طبيعية في سياق ع. ٩.

٣: ١١–١٣ تنقية إسرَإيل وعودة البقية من السبي في ع. ١١: «في ذلك اليوم»، عندما تنتهي الدينونة والعقاب–ما ساهم في تنقية إسرَإيل من شرورها–ويبدأ زمن الصفح والغفران. ثم يتوجه الرب بكلامه إلى يهوذا أو أورشليم (إسرَإيل) ويقول لها بأنها سوف لن تخجل من الأعمال الوثنية التي خان بها الشعب الله والشرور التي عملوها، ولن تتوقع العقاب عليها لأن الله يكون قد نزع من وسطها كل الأشرار الذين كانوا يبتهجون بالكبرياء–يكونون قد ماتوا في الحروب والضربات التي أتت عليهم. لذلك فهذه «البقية التقية» (إش ١: ٩؛ ٤: ٣؛ عا ٥: ١٥)، التي تسكن «جبل قدسه» (صهيون أو جبل الهيكل، أو مرتفعات اليهودية) لن تعمد إلى التكبر والاستعظام (إش ١٣: ٣)، بل تتحلّى بالتواضع والروح المنكسرة. وسيبقى في أورشليم أو يهوذا (إسرَإيل) فقط البقية التقية المكوّنة من البائسين والمساكين الذين يتوكلون على الله (ع. ١٢). وهذه البقية التقية لن تقترف الآثام والشرور التي كان يعملها شعب إسرَإيل، بل يكونون كالغنم الذي يرعى حتى الشبع ويربض وليس من يُخيفه (ع. ١٣).

٣: ١٤–١٧ بهجة العودة إلى الله في ع. ١٤، يدعو النبي شعب إسرَإيل للابتهاج، فيستخدم أربعة أفعال يقول بها لإسرَإيل أن تفرح: ترنمي واهتفي وافرحي وابتهجي، وثلاثة مرادفات لشعب الرب: ابنة صهيون (شعب إسرَإيل) وإسرَإيل وابنة أورشليم (شعب أورشليم). في ع. ١٥، يذكر النبي سبب الفرح: أزال الرب كل الأحكام التي صدرت بحقك، وأودى بأعدائك وأضحى الرب نفسه ملك إسرَإيل الحقيقي. لذلك فلن يوجد شر في إسرَإيل فيما بعد (ع. ١٥). «في ذلك اليوم»، إشارة إلى زمن الفَرَج، الذي هو غالبًا العودة من السبي، سيصدح صوت الأنبياء ينادون أورشليم بألاّ تخاف سوءًا، وألاّ ترتخي أيديها عن العمل (ع. ١٦). يُذكرنا هذا برسالة النبيين حجي وزكريا المشجعة للعائدين من السبي (عز ٥: ١–٢). ع. ١٧ تسبيحة ابتهاج. الرب الملك الذي في وسطك يا أورشليم هو «جبار» و«يخلص»، هو جبار في القتال وقادر أن يُحقق النصر لشعبه، فيحررهم من كل من استعبدهم، ويخلصهم من كل ضيق. وسيبتهج الرب بك حين تعودين إلى عهده معك. «يسكت في محبته»، من الصعب أن نجد لها معنًى مفيدًا، وبُذلت عدة محاولات لهذا الغرض، والأكثر قبولاً هو التالية: الفعل العبري المترجم «يسكت» هو «**حَ رَ ش**»، الراء تشبه الدال في الخط العبري، فإذا استبدلنا الراء بدال تصبح «**حَ دَ ش**» أي «جدّد». ويصبح معنى الجملة: «يجدد[ك] بمحبته».

٣: ١٨–٢٠ مواعيد إلهية بالخير والبركات تأتي في سياق الأعداد السابقة ع. ١٨ صعب التفسير وتحتمل عدة معانٍ. يعد الرب بأنه يجمع المحزونين الذين لا يحق لهم حضور موسم الفرح (لا ٢٣: ٢، ٤، ٣٧؛ مرا ٢: ٦). هؤلاء كانوا من أورشليم (يهوذا أو إسرَإيل) يسببون لها العار. هذا نوع من التنقية. في ع. ١٩، تتكرر عبارة «في ذلك اليوم»، أي عندما ينتهي زمن العقاب ويحل زمن التوبة والرجوع إلى الرب. هناك وعد من الرب لأورشليم بأنه سيتعامل مع الذين أذلّوها، ويشفي أبناءها من كل ضعف معطيًا إياها صورة القطيع وهو الراعي (حز ٤٣: ١٢؛ إر ٢٣: ٦؛ مز ٢٣): يشفي الغنمة المريضة، ويأتي بالغنمة الضالة البعيدة. وسيعطيهم فرحًا وسيجعل لهم اسمًا عظيمًا يُعرف في كل الأماكن حيث أُذلّوا. في ع. ٢٠ تكرار لعدد من مكوّنات العدد السابق. يحدث كل ما وعد به الرب «في الوقت الذي فيه آتي بكم وفي وقت جمعي إياكم» يقول الرب. وسيكون لأبناء يهوذا (إسرَإيل) اسم عظيم بين شعوب الأرض كلها، وسيكونون موضوع تسبيح وحمد يُرفعان للرب. «قدام أعينكم»: الرب سيجري الكسر والجبر قدام أعينهم، فيعرفون أن الله هو القدير وبيده مصائر الشعوب، وتحولات التاريخ.

الدكتور القس عيسى دياب